سورة النبأ مكية

وآياتها أربعون

بسم الله الرحمن الرحيم

القولُ في تأويلِ قولِه تعالى :

عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥

يقول تعالى ذكره : عن أيِّ شيءٍ يتساءلُ هؤلاءِ المشركون باللهِ ورسولِه من قريش يا محمَّد ؟ وقيلَ ذلك له صلى الله عليه وسلم ، وذلكَ أنَّ قريشاً جعلتْ فيما ذُكِرَ عنها تختصم وتتجادلُ في الذي دعاهم إليه رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم من الإقرارِ بنبوَّتِه ، والتصديقِ بما جاءَ به من عندِ اللهِ ، والإيمانِ بالبعثِ ، فقالَ اللهُ لنبيه : فيمَ يتساءلُ هؤلاءِ القومُ ويختصمون ؟ و «في» و«عن» في هذا الموضعِ بمعنىً واحدٍ .

ثم أخبرَ اللهُ نبيَّه صلى الله عليه وسلم عن الذي يتساءلونَه ، فقال : يتساءلونَ عن النبأِ العظيمِ ، يعني : عن الخبرِ العظيم .

وكان بعضُ أهلِ العربيةِ يقولُ : معنى ذلك : عمَّ يتحدَّثُ به قريشٌ في القرآنِ ، ثم أجابَ فصارتْ عمَّ كأنَّها في معنى : لأيِّ شيءٍ يتساءلونَ عن القرآنِ . ثم أخبرَ فقالَ : «الذي هُم فيه مختلفون» بين مصدِّقٍ ومكذِّبٍ ، فذلك اختلافُهم .

وقوله : « الذي هم فيه مختلفون » يقولُ تعالى ذكرُه : الذي صاروا هم فيه مختلفون فريقين : فريقٌ به مصدِّقٌ ، وفريقٌ به مكذِّبٌ . يقول تعالى ذكرُه : فتساؤلُهم بينَهم في النبإِ الذي هذه صفتُه .

وقوله « كلا » يقولُ تعالى ذكرُه : ما الأمرُ كما يزعُمُ هؤلاءِ المشركونَ الذين يُنكرونَ بعْثَ اللهِ إيَّاهُم أحياءً بعدَ مماتِهم ، وتوعَّدَهُم جلَّ ثناؤه على هذا القولِ منهم ، فقالَ : « سيعملونَ » يقول : سيعلم هؤلاءِ الكفارُ المنكِرونَ وعيدَ اللهِ أعداءَه ما اللهُ فاعلٌ بهم يومَ القيامةِ . ثمَّ أكَّدَ الوعيدَ بتكريرٍ آخَر ، فقالَ : ما الأمرُ كما يزعُمونَ مِن أنَّ اللهَ غيرُ مُحْيِيهِم بعدَ مماتِهم ، ولا معاقبهم على كفرهِم به ، سيعلمونَ أنَّ القولَ غير ما قالوا إذا لَقوا اللهَ وأفْضَوْا إلى ما قدَّموا من سيِّئِ أعمالِهم .

القولُ في تأويلِ قولِه تعالى :

أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَـٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾

يقولُ تعالى ذكرُه معدِّداً على هؤلاءِ المشركينَ نِعَمَه وأياديَه عندَهم ، وإحسانَه إليهم ، وكفرانَهم ما أنعمَ به عليهم، ومتوعِّدَهم بما أعدَّ لهم عندَ ورودِهم عليه ، من صنوفِ عقابه ، وأليمِ عذابه ، فقال لهم : « ألم نجعلِ الأرضَ » لكم « مِهاداً » تَمْتَهدونها وتفترِشونها .

« والجبال أوتاداً » يقول : والجبالَ للأرضِ أوتاداً أنْ تميدَ بكم .

« وخلقناكم أزواجاً » ذُكراناً وإناثاً ، طِوالاً وقصاراً، أو ذوي دمامةٍ وجَمالٍ ، مثل قوله : «الذينَ ظَلَموا وأزواجَهم» يعني به : صَيَّرناهم .

وقوله : « وجعلنا نومَكم سُباتاً » يقول : وجعلنا نومَكم لكم راحةً ودَعَةً ، تهدَءونَ به وتَسْكُنونَ ، كأنَّكم أمواتٌ لا تشعرون ، وأنتم أحياءٌ لم تفارقكم الأرواحُ . والسَّبْتُ والسُّباتُ : هو السكون ، ولذلك سُمِّي السبتُ سبتاً ، لأنَّه يومُ راحةٍ ودَعَةٍ .

وقوله : « وجعلنا الليلَ لِباساً » يقول تعالى ذكره : وجعلنا الليلَ لكم غِشاءً يتغشَّاكم سوادُه ، وتُغطِّيكم ظلمتُه ، كما يغطِّي الثوبُ لابسَه ، لتسكنوا فيه عن التصرُّفِ لِما كنتم تتصرَّفون له نهاراً .

وقوله : « وجعلنا النهارَ معاشاً » يقول : وجعلنا النهارَ لكم ضياءً لتنتشروا فيه لمعاشكم ، وتتصرفوا فيه لمصالحِ دنياكم ، وابتغاءِ فضل الله فيه ، وجعَلَ – جلَّ ثناؤه – النهارَ إذْ كان سبباً لتصرُّفِ عبادِه لِطلَبِ المعاشِ فيه معاشاً .

القولُ في تأويلِ قولِه تعالى :

وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا

يقول تعالى ذكره : « وبنينا فوقكم » : وسَقَفْنا فوقَكم ، فجعلَ السقفَ بناءً ، إذْ كانت العربُ تسمِّي سقوفَ البيت ، وهي سماؤها ، بناءً ، وكانت السماءُ للأرضِ سقفاً ، فخاطبَهم بلسانِهم ، إذ كانَ التنزيلُ بلسانِهم . وقال: « سبعاً شداداً » إذ كانت وِثاقاً مُحْكَمَةَ الخَلْقِ ، لا صُدوع فيهنَّ ولا فُطور ، ولا يَبْلينَ مرَّ الليالي والأيامِ .

وقوله : « وجعلنا سراجاً وهَّاجاً » يقول تعالى ذكره : وجعلْنا سِراجاً ، يعني بالسراج : الشمس . وقوله « وهَّاجاً » يعني : وقَّاداً مُضيئاً .

وقوله : « وأنْزلنا من المُعْصِراتِ » اختلفَ أهلُ التأويلِ في المَعْنِيِّ بالمعصراتِ ، فقالَ بعضُهم: عُنِيَ بها الرياح التي تعصرُ في هبوبها . وقال آخرون : بل هي السَّحابُ التي تَتَحَلَّبُ بالمطرِ ولَمَّا تمطرُ ، كالمرأةِ المعصِرِ التي قد دَنا أوانُ حيضِها ولم تحِض . وقال آخرون : بل هي السَّماء .

وأولى الأقوالِ في ذلك بالصوابِ أنْ يُقال : إن اللهَ أخبرَ أنَّه أنزلَ من المعصراتِ ، وهي التي تحلَّبتْ بالماءِ من السحابِ ، ماءً .

وأما قوله : « ماءً ثجَّاجاً » يقول : ماءً مُنْصَبَّاً يتبعُ بعضُه بعضاً ، كَثجِّ دماءِ البدَنِ ، وذلك سفكُها . وقال بعضُهم : عُنِيَ بالثجَّاجِ : الكثير .

القولُ في تأويلِ قولِه تعالى :

لِنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾

يقول تعالى ذكرُه : لنُخرجَ بالماءِ الذي ننزلُه من المعصراتِ إلى الأرضِ حبَّاً ؛ والحَبُّ كلُّ ما تضمَّنَه كِمامُ الزرعِ التي تُحصَد ، وهي جمعُ حَبَّةٍ ، كما الشعيرُ جمعُ شعيرةٍ ، وكما التَّمرُ جمعُ تمرةٍ . وأمَّا النباتُ فهو الكَلأُ الذي يُرعَى من الحشيشِ والزروعِ .

وقوله : « وجَنَّاتٍ ألفافاً » يقول : ولنخرجَ بذلكَ الغيثِ جنَّاتٍ وهي البَساتين . وقال : وجناتٍ ، والمعنى : وثَمَرَ جناتٍ ، فَتَرَكَ ذكرَ الثمرِ استغناءً بدلالةِ الكلامِ عليه من ذكْرِه . وقوله « ألفافاً » يعني : مُلتفةٌ مجتمعة .

واختلفَ أهلُ العربيةِ في واحِدِ الألْفافِ ، فكانَ بعضُ نحويي البصرةِ يقولُ : واحدُها لَفّ . وقالَ بعضُ نحويي الكوفةِ : واحدُها لَفّ ولفيف . قال : وإنْ شئتَ كانَ الألفافُ جمعاً ، واحدُه جمعٌ أيضاً ، فتقول : جنَّةٌ لفَّاء ، وجناتٌ لَفٌّ ، ثم يُجمَعُ اللفُّ ألفافاً .

وقال آخرُ منهم : لم نسمعْ شجرة لفَّة ، ولكن واحدُها لفَّاء ، وجمعها لَفٌّ ، وجمعُ لفٍّ : ألفافٌ ، فهو جمعُ الجمعِ .

والصواب من القول في ذلك أنَّ الألفافَ جمعُ لفٍّ أو لفيفٍ ، وذلك أنَّ أهلَ التأويلِ مجمعونَ على أنَّ معناه : مُلْتَفَّة ، واللفَّاءُ هي الغليظةُ ، وليس الالتفافُ من الغِلَظِ في شيءٍ إلا أنْ يوجَّه إلى أنه غلظ الالتفافِ ، فيكونُ ذلك حينئذٍ وجهاً .

وقوله : « إنَّ يومَ الفصلِ كانَ ميقاتاً » يقول تعالى ذكرُه : إنَّ يومَ يفصِلُ اللهُ فيه بينَ خلقِه ، فيأخذُ فيه من بعضِهم لبعضٍ ، كان ميقاتاً لِمَا أنفذَ اللهُ لهؤلاءِ المكذبين بالبعثِ ، ولضُرَبائِهم من الخلْق .

وقوله : « يومَ يُنفخ في الصُّورِ » : تُرْجِمَ بيومِ ينفخ عن يومِ الفصلِ ، فكأنَّه قالَ : يوم الفصلِ كانَ أجلاً لِمَا وعدْنا هؤلاءِ القومَ ، يومَ يُنفَخُ في الصُّورِ ، وهو قَرْنٌ يُنفَخُ فيه .

وقوله : « فتأتونَ أفْواجاً »: يقول : فيَجيئونَ زُمَراً زُمَراً ، وجماعةً جماعةً . وإنما قيل « فتأتون أفواجاً » لأنَّ كلَّ أمَّةٍ أرسلَ اللهُ إليها رسولاً تأتي معَ الذي أُرسِلَ إليها ، كما قال : « يومَ ندعوا كلَّ أُناسٍ بإمامِهم » .

وقوله : « وفُتِحَتِ السماءُ فكانتْ أبواباً » : يقولُ تعالى ذِكرُه : وشققتِ السماءُ فصدِّعتْ ، فكانت طُرُقاً ، وكانت من قبلُ شداداً لا فطورَ فيها ولا صُدوع . وقيل : معنى ذلك : وفتحت السماءُ فكانتْ قطعاً كقطعِ الخشبِ المشقَّقةِ لأبوابِ الدورِ والمساكن ، قالوا : ومعنى الكلام : وفتحت السماءُ فكانتْ قطعاً كالأبوابِ ، فلمَّا أُسْقِطَت الكافُ صارت الأبوابُ الخبر ، كما يقال في الكلام : كانَ عبدُ اللهِ أسداً، يعني : كالأسد .

وقوله : « وسُيِّرت الجبالُ فكانت سراباً » : يقول : ونُسِفَت الجبالُ فاجْتُثَّت من أصولِها ، فصُيِّرت هباءً منبثًّا ، لِعَيْنِ الناظِرِ ، كالسرابِ الذي يظنُّ مَن يراه مِن بُعدٍ ماءً ، وهو في الحقيقةِ هَباء .

القولُ في تأويلِ قولِه تعالى :

إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾

يعني تعالى ذِكْرُه بقولِه : إنَّ جهنمَ كانتْ ذاتَ رصْدٍ لأهلِها ، الذين كانوا يكذِّبون في الدنيا بها ، وبالمعادِ إلى اللهِ في الآخرةِ ، ولغيرِهم من المصدِّقين بها . ومعنى الكلامِ : إنَّ جهنمَ كانت ذاتَ ارتقابٍ ، ترقُبُ من يجتازُها وترصدُهم .

وقوله : « للطاغينَ مآباً » يقول تعالى ذكره : إنَّ جهنمَ للذينَ طغَوا في الدنيا ، فتجاوزوا حدودَ اللهِ ، استكباراً على ربِّهم ، كانتْ منزلاً ومرجِعاً يرجِعونَ إليه ، ومصيراً يصيرونَ إليه يسكنونَه .

وقوله : « لابثِينَ فيها أحقاباً » يقول تعالى ذكرُه : إنَّ هؤلاءَ الطاغينَ في الدنيا لابثونَ في جهنمَ ، فماكثونَ فيها أحْقاباً .

وأما الأحْقابُ فجمْعُ حُقْبٍ ؛ والحِقَب جمع حِقبَة . وقد اختلفَ أهلُ التأويلِ في مبلغِ مُدَّةِ الحُقْبِ : فقال بعضهم : مدةُ ثلاثُ مئةِ سنة ؛ وقال آخرون : بل مدَّةُ الحُقْبِ الواحدِ ثمانونَ سنة. وعن الربيع بن أنس « لابثِينَ فيها أحْقاباً » قال : لا يعلم عِدَّةَ هذه الأحقابِ إلا اللهُ ، ولكن الحِقْبَ الواحدَ ثمانونَ سنة، والسنةُ ثلاثُ مئةٍ وستون يوماً ، كلُّ يومٍ من ذلك ألفُ سنة. اهـ وقال آخرون : الحِقْبُ الواحدُ سبعونَ ألفَ سنة . وقد يُحتَملُ أنْ يكونَ معنى ذلك : لابثِينَ فيها أحقاباً ، في هذا النوعِ من العذابِ ، هو أنهم « لا يذوقونَ فيها بَرْداً ولا شَراباً إلا حميماً وغسَّاقاً » فإذا انقضتْ تلكَ الأحقابُ ، صارَ لهم من العذابِ أنواعٌ غير ذلك ، كما قالَ جلَّ ثناؤه في كتابه : « وإنَّ للطاغينَ لشرَّ مآب ، جهنم يَصْلونَها فبئسَ المهاد ، هذا فلْيذوقوه حميمٌ وغسَّاق ، وآخرُ من شكْلِه أزواج » ، وهذا القولُ عندي أشبهُ بمعنى الآية .

وقوله : « لا يذوقونَ فيها برداً ولا شراباً » يقول : لا يُطعَمون فيها برداً يبرِّد حرَّ السعيرِ عنهم ، إلا الغسَّاق ، ولا شراباً يَرويهم من شدة العطش الذي بهم ، إلا الحميم .

وقوله : « إلا حميماً وغسَّاقاً » يقول تعالى ذكره : لا يذوقونَ فيها برداً ولا شراباً إلا حميماً قد أُغْليَ حتى انتهى حَرُّه ، فهو كالمُهلِ يشوي الوجوهَ ، ولا برد إلا غسَّاقاً . واختلفَ أهلُ التأويلِ في معنى الغسَّاق ، فقال بعضُهم : هو ما سالَ من صَديدِ أهلِ جهنم. وقال آخرون : الغساق : الزَّمْهَرير .

والغسَّاق عندي : هو الفعَّال ، من قولهم : غسَقَتْ عينُ فلانٍ ، إذا سالت دموعُها ؛ وغسقَ الجرحُ : إذا سالَ صديدُه ، ومنه قولُ اللهِ « ومِن شرِّ غاسقٍ إذا وقَب » يعني بالغاسقِ : الليلُ إذا لَبسَ الأشياءَ وغطَّاها ، وإنما أُريد ذلك هُجُومُه على الأشياءِ ، هجومَ السيلِ السائلِ ، فإذا كان الغسَّاقُ هو ما وصفت من الشيءِ السائل ، فالواجبُ أنْ يقالَ : الذي وَعَدَ اللهُ هؤلاءِ القوم ، وأخبرَ أنهم يذوقونَه في الآخرةِ من الشرابِ ، هو السائلُ مِن الزمهريرِ في جهنم ، الجامعِ مع شدة بردِه النتن .

عند أبي سعيد الخدري، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال : « لو أنَّ دلواً من غسَّاق يُهراقُ إلى الدنيا ، لأنتنَ أهلُ الدنيا »[1] .

فإنْ قالَ قائل : فإنَّكَ قد قلتَ : إنَّ الغسَّاقَ هو الزمهرير ، والزمهريرُ هو غايةُ البردِ ، فكيف يكونُ الزمهريرُ سائلاً ؟ قيل : إنَّ البردَ الذي لا يُستطاعُ ولا يُطاقُ ، يكون في صفةِ السائلِ من أجسادِ القومِ من القيحِ والصديدِ .

القولُ في تأويلِ قولِه تعالى :

جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾

يقول تعالى ذكره : هذا العِقابُ الذي عُوقبَ به هؤلاءِ الكفارُ في الآخرةِ ، فعَلَه بهم ربُّهم جزاءً ، يعني : ثواباً لهم على أفعالِهم وأقوالِهم الرديئةِ التي كانوا يعملونَها في الدنيا ، وهو مصدرُ من قولِ القائلِ : وافقَ هذا العقابُ هذا العملَ وِفاقاً .

وقوله : « إنَّهم كانوا لا يرجونَ حساباً » يقول تعالى ذكره : إنَّ هؤلاءِ الكفار كانوا في الدنيا لا يخافونَ محاسبةَ اللهِ إياهم في الآخرةِ عن نِعَمِه عليهم ، وإحسانِه إليهم ، وسوءِ شكرِهم له على ذلك .

وقوله : « وكذَّبوا بآياتنا كِذَّاباً » يقول تعالى ذكره : وكذَّبَ هؤلاء الكفارُ بحُجَجِنا وأدلتِنا تكذيباً . وقيل « كِذاباً » ولم يقل تكذيباً ، تصديراً على فعلِه .

وكان بعضُ نحويي البصرةِ يقول : قبل ذلك لأن فعَلَ منه على أربعة ، فأرادَ أنْ يجعلَه مثلَ باب أفعلتَ ، ومصدرُ أفعلتَ إفعالاً ، فقال : كِذَّاباً ، فجعلَه على عددِ مصدرِه ، قال: وعلى هذا القياسِ تقولُ : قاتلَ قِتالاً، قال : وهو من كلام العرب . وقال بعضُ نحويي الكوفة : هذه لغةٌ يمانيةٌ فصيحةٌ ،

[1] سند الحديث : حدثنا ابن المثنى قال : حدثنا يعمر بن بشر قال : ثنا ابن المبارك قال : ثنا رشدين بن سعد قال : حدثنا عمر بن الحارث عن أبي السمح عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم. فيه رشدين بن سعد فيه مقال معروف ، انظر فتح القدير: (٦٢٢/٤) ، وضعفه الألباني – رحمه الله – في «ضعيف الترغيب والترهيب ، رقم ٢١٥٦» وفي «ضعيف الترمذي ، رقم ٢٥٨٤» ، وفي «ضعيف الجامع ، رقم ٤٨٠٣» ، وفي «مشكاة المصابيح ، رقم ٢٦١٠» (المصدر : موقع الدرر السنية).

يقولون : كذَّبتَ به كِذَّاباً ، وخرَّقتَ القميصَ خِرَّاقاً ، وكلّ فعَّلت فمصدرها فِعَّال بلُغتِهم مشدَّدة . قال: وقال لي أعرابيٌّ مرةً على المَروةِ يستفتيني : الحلْقُ أحبُّ إليكَ أم القِصَّار ؟

وقوله : « وكلَّ شيءٍ أحصيناهُ كتاباً » يقول تعالى ذكره : وكلَّ شيءٍ أحصيناه فكتبناه كتاباً ، كتبنا عددَه ومبلغَه وقدرَه ، فلا يعزُبُ عنا علمُ شيءٍ منه . ونصَبَ « كِتاباً » لأنَّ في قولِه «أحصيناه» مصدرَ أثبتناه وكتبناه ، كأنه قيل : وكل شيء كتبناه كتاباً .

وقوله : « فذُوقوا فلنْ نزيدَكُم إلا عذاباً » يقول جلَّ ثناؤه : يُقالُ لهؤلاءِ الكفارِ في جهنمَ إذا شرِبوا الحميمَ والغسَّاقَ : ذُوقوا أيها القومُ من عذابِ اللهِ الذي كنتم به في الدنيا تكذبون ، فلن نزيدَكُم إلا عذاباً على العذابِ الذي أنتم فيه لا تخفيفاً منه ولا ترفُّهاً .

القولُ في تأويلِ قولِه تعالى :

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾

يقول : إنَّ للمتقينَ منْجىً من النارِ إلى الجنةِ ، ومَخْلَصاً منها لهم إليها ، وظفروا بما طلبوا .

وقوله « حدائق » والحدائق : ترجمةٌ وبيانٌ عن المفازِ ، وجازَ أن يُتَرْجَمَ بها عنه ، لأنَّ المفازَ مصدرٌ من قولِ القائلِ : فازَ فلانٌ بهذا الشيءِ إذا طلبَه فظفرَ به ، فكأنَّه قيل : إنَّ للمتقينَ ظفراً بما طلبوا من حدائقَ وأعنابٍ ، والحدائقُ : جمعُ حديقةٍ ، وهي البساتينُ من النخلِ والأعنابِ والأشجارِ المُحَوَّط عليها الحيطان المحدقة بها ، لإحداقِ الحيطانِ بها تُسمَّى الحديقةُ حديقةً ، فإنْ لم تكن الحيطانُ بها محدقةً ، لم يُقَل لها حديقة ، وإحْداقها بها : اشتمالُها عليها.

وقوله « وأعناباً » يعني : وكرومَ أعناب ، واستغنى بذكرِ الأعنابِ عن ذكرِ الكرومِ .

وقوله : « وكَواعبَ أتراباً » يقول : ونواهدَ في سِنٍّ واحدةٍ .

وقوله : « وكأساً دِهاقاً » يقول : وكأساً ملأى متتابعةً على شاربيها بكثرةٍ وامتلاءٍ . وأصلُه من الدَّهْقِ : وهو متابعةُ الضغطِ على الإنسانِ بشدةٍ وعنفٍ ، وكذلك الكأسُ الدهاقُ : متابعتُها على شاربيها بكثرةٍ وامتلاءٍ .

وقوله : « لا يسمعونَ فيها لَغْواً ولا كِذَّاباً » يقول تعالى ذكره : لا يسمعونَ في الجنةِ لغواً، يعني باطلاً من القولِ ، ولا كِذاباً ، يقول : ولا مكاذبةً ، أيْ لا يُكَذِّبُ بعضُهم بعضاً .

القولُ في تأويلِ قولِه تعالى :

جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾

يعني بقوله جل ثناؤه : « جَزاءً مِن ربِّكَ عَطاءً » أعطى اللهُ هؤلاءِ المتقينَ ما وَصَفَ في هذه الآياتِ ثواباً من ربِّك بأعمالِهم ، على طاعتِهم إياهُ في الدنيا . وقوله « عَطاءً » يقول : تفضُّلاً من اللهِ عليهم بذلكَ الجزاءِ ، وذلكَ أنَّه جَزاهُم بالواحدِ عَشْراً في بعضٍ ، وفي بعضٍ بالواحدِ سبعَ مئين ، فهذه الزيادةُ وإنْ كانتْ جزاءً فعطاءٌ من اللهِ .

وقوله « حساباً » يقول : محاسبةً لهم بأعمالِهم للهِ في الدنيا .

وقوله : « ربِّ السمواتِ والأرضِ وما بينهما الرحمنِ » يقول جلَّ ثناؤه : جزاءً من ربِّكَ ربِّ السمواتِ السبعِ والأرضِ وما بينهما من الخلْقِ .

وقوله « الرحمنِ لا يملكونَ منه خِطاباً » يقول تعالى ذكرُه : الرحمن لا يقدرُ أحدٌ من خلْقِه خطابَه يومَ القيامةِ ، إلا مَن أَذِنَ له منهم ، وقال صَواباً .

وقوله : « يومَ يقومُ الروحُ » اختلفَ أهلُ العلمِ في معنى الروحِ في هذا الموضعِ ، فقالَ بعضُهم : هو مَلَكٌ مِن أعظمِ الملائكة خَلْقاً . وقال آخرون : هو جبريل عليه السلام . وقال آخرون : خَلْقٌ مِن خَلْقِ اللهِ في صورةِ آدمَ . وقال آخرون : هم بنو آدم . وقال آخرون : قيل : ذلك أرواحُ بني آدم . وقال آخرون : هُو القرآنُ . والصواب من القول أنْ يُقال : إنَّ الله تعالى ذِكْرُه أخبرَ أنَّ خلْقَه لا يملكونَ منه خِطاباً ، يوم يقوم الروح ، والروح : خَلْقٌ من خلْقِه . وجائز أن يكونَ بعضُ هذه الأشياءِ التي ذكرتُ ، والله أعلم أي ذلك هو . ولا خبرَ بشيءٍ من ذلك أنَّه المعنيُّ به دونَ غيرِه ، يجبُ التسليمُ له ، ولا حجةً تدلُّ عليه ، وغيرُ ضائرٍ الجهلُ به .

وعن الشعبي في قوله « يومَ يقومُ الروحُ والملائكةُ صَفًّا لا يتكلمونَ إلا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرحمنُ » قال : هما سِماطانِ لربِّ العالمين ، يوم القيامة : سماطٌ من الروحِ وسماطٌ من الملائكةِ .

وقوله : « لا يتكلمونَ إلا مَن أذنَ لَهُ الرحمنُ » قيل : إنَّهم يُؤذَنُ لهم في الكلامِ ، حين يُؤمَرُ بأهلِ النارِ إلى النارِ ، وبأهلِ الجنةِ إلى الجنةِ . وقال آخرون : « إلا مَن أذِنَ له الرحمنُ » بالتوحيدِ و«قال صَواباً» في الدنيا ، فوحَّد اللهَ .

والصواب من القول في ذلك : أنْ يقال : إنَّ اللهَ تعالى ذكرُه أخبرَ عن خلْقِه أنَّهم لا يتكلمونَ يومَ يقومُ الروحُ والملائكةُ صفاً ، إلا مَن أذنَ له منهم في الكلامِ الرحمنُ ، وقال صَواباً ، فالواجبُ أنْ يُقالَ كما أخبرَ إذْ لم يخبرْنا في كتابه ، ولا على لسانِ رسولِه ، أنَّه عَنى بذلك نوعاً من أنواعِ الصوابِ ، والظاهر محتمل جميعه .

القولُ في تأويلِ قولِه تعالى :

ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾

يقول تعالى ذكره : « ذلكَ اليومُ » يعني : يومَ القيامة ، وهو يومَ يقومُ الروحُ والملائكةُ صفاً . « الحقُّ » يقول : إنَّه حقٌّ كائنٌ ، لا شكَّ فيه .

وقوله : « فمَن شاءَ اتخذَ إلى ربِّه مآباً » يقول : فمَن شاءَ مِن عبادِه اتخذَ بالتصديقِ بهذا اليومِ الحقِّ ، والاستعدادِ له ،والعملِ بما في النجاة له مِن أهوالِه « مآباً » يعني : مَرجِعاً، وهو مَفْعَل ، من قولِهم : آبَ فلانٌ من سَفَرِه .

وقوله : « إنَّا أنذَرناكُم عَذاباً قَريباً » : يقول : إنَّا حذَّرناكُم أيها الناسُ عذاباً قد دَنا منكم وقَرُبَ ، وذلكَ « يومَ ينظرُ المرءُ » المؤمنُ « ما قدَّمتْ يداهُ » مِن خيرٍ اكتسبَه في الدنيا ، أو شرٍّ سَلَفَه ، فيرجُو ثوابَ اللهِ على صالحِ أعمالِه ، ويخافُ عقابَه على سيِّئها .

وقوله : « ويقولُ الكافِرُ يا ليتني كُنتُ تُراباً » يقول تعالى ذكرُه : ويقولُ الكافرُ يومئذٍ تمنِّياً لما يلْقى من عذابِ اللهِ الذي أعدَّه لأصحابه الكافرينَ به ، يا ليتَني كنتُ تُراباً ، كالبهائمِ التي جُعِلتْ تُراباً .